# أسرارٌ ومقاصد

تَـحِنّ القلوبُ وتهفو النفوسُ في كلّ عامٍ إلى حج بيتِ الله العتيق، ويتمنى كلُّ مسلم أن ينالَ شرف هذه الزيارة، طمعًا في المغفرة، وتلبيةً لنداءِ إبراهيم -عليه السلام- الذي أمرهُ الله تعالى بتبليغه للناس كافَّة، فقال: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ﴾ [الحج: ٢٧].

والمتدبّرُ للنصوص الشرعية في الحج يَلْمَسُ عددًا من المقاصدِ والأسرار التي ينبغي أن يتوقفَ معها المسلم -لا سيما الحاجّ-؛ لأن فِهْمَ مقاصد العبادة وأسرارها وحِكَمها طريقٌ إلى تعظيمِها وحضورِ القلب عندَ القيام بها. ومن تلك المقاصد:

المقصد الأول: تحقيقُ التوحيدِ والإخلاص لله تعالى:

قال تعالى: ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ٢٦ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ﴾ [الحج: ٢٦-٢٧].

ويجد الـمُتَتَبِّعُ لسياقِ حَجةِ النبي ﷺ إعلانَ التوحيدِ في عدة مشاهد، منها:

- التلبية: فعن جابر رضي الله عنه أنَّه قال في بيان حَجَّتِه عليه الصلاة والسلام: "فأهلَّ بالتوحيدِ: لبَّيكَ اللهُمَّ لبَّيك، لبَّيْك لا شريكَ لك لبَّيْك؛ إنَّ الحمدَ والنِّعمَةَ لك والْمُلْك، لا شريكَ لك" رواه مسلم.

  قال النووي -رحمه الله-: "وفيه إشارةٌ إلى مخالفة ما كانت الجاهليَّة تقوله في تَلْبِيَتها من لفْظِ الشِّرْك".
- سؤال الله الإخلاص: فقد سأل ﷺ ربه قائلًا: (اللهم حجةً لا رياءَ فيها ولا سُمعةَ) صححه الألباني.
- الذكر عند الصفا والمروة: قال جابر رضي الله عنه: "فَاسْتَقْبَلَ القِبْلَةَ، فَوَحَّدَ اللَّهَ وَكَبَّرَهُ، وَقَالَ: (لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ له، له المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهو علَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ، لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، أَنْجَزَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ) رواه مسلم.

- الدعاء: وهو من أعظم مظاهر التوحيد، حين يُقبِل العبد على ربه، بِكُلِّيَتِه؛ خائفًا، راجيًا، طامعًا، راغبًا، راهبًا، منيبًا، مُتضرِّعًا، مبتهلًا. فحريٌّ بمن أشْهَدَهُ الله هذهِ المواطن الشريفة، أن يَفْقَه هذه المعاني العظيمة، وأن يَنفض الغبار عن نفسه، ويجلو صدأ قلبه، ويُذْكي جذوة التوحيد في روحه.

المقصد الثاني: المتابعة والانقياد:

وما من عبادةٍ من العبادات يتجلى فيها الانقيادُ التام، والمتابعةُ المطلقة لرسول الله ﷺ، كالحج؛ فالحاج يتقلبُ في مناسكَ متنوعة، ويتنقَّلُ بين مشاعرَ متعددة، قد لا يعرف الحكمة منها، سوى الامتثالِ لأمر الله تعالى، والتأسي برسولِ الله ﷺ. فهو يُقبّل حجرًا تارةً، ويرمي حجرًا تارةً أخرى؛ وهو يتجاوز مَشعرًا، ليصل إلى آخَر، ثم يعودُ إلى الأول؛ وهو يطوف سبعًا، ويسعى سبعًا، ويرمي بسبع، دون أن يدرك معنًى خاصًا للعَدَد.

وقد أدرك الصحابة أهمية المتابعة، كما قال جابر رضي الله عنه: "مَكَثَ تِسْعَ سِنِينَ لَمْ يَحُجَّ، ثُمَّ أَذَّنَ فِي النَّاسِ فِي العَاشِرَةِ أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ حَاجٌّ، فَقَدِمَ المَدِينَةَ بَشَرٌ كَثِيرٌ، كُلُّهُمْ يَلْتَمِسُ أَنْ يَأْتَمَّ بِرَسولِ اللهِ ﷺ، وَيَعْمَلَ مِثْلَ عَمَلِهِ، فَخَرَجْنَا معهُ" رواه مسلم.

وقد ظلَّ ﷺ يُنبّه على معنى المتابعةِ والانقياد، فيقول: (لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ، فإنِّي لا أَدْرِي لَعَلِّي لا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هذِه) رواه مسلم

المقصد الثالث: إظهارُ الافتقار إلى الله سبحانه:

فالحاجُّ يبتعد عن الترفّه والتزيُّن، ويلبس ثياب الإحرام؛ متجردًا عن الدنيا وزينتها، فيُظهِر عَجزه، ومَسْكَنَتَه، ويكونُ في أثناء المناسك ضارعًا لربه عز وجل، مفتقرًا إليه، ذليلًا بين يديه، منقادًا بطواعيةٍ لأوامرِه، مُجتنبًا لنواهيه، سواء عَلِمَ حكمتها أم لم يَعلم.

قال السعدي -رحمه الله-: "والمقصودُ من الحج، الذلُّ والانكسارُ لله، والتقرُّبُ إليه بما أمكن من القُرُبات، والتنزُّه عن مُقارفةِ السيئات؛ فإنَّه بذلك يكون مبرورًا، والمبرورُ ليس له جَزَاءٌ إلا الجنَّةُ".

المقصد الرابع: تحقيقُ التقوى لله تعالى:

قال الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧] وقد أكثر الله في آيات الحج من وصيتهِ لعبادهِ بالتقوى؛ لأنَّه يحصل في الحج من أسبابِ التقوى ما لا يحصلُ في غيره.

قال ابن رجب -رحمه الله-: "ما تزوّد حاجٌّ ولا غيره بأفضلَ من زادِ التقوى، ولا دُعي للحاج عند توديعه بأفضل من التقوى".

ومما تتحقَّقُ به التقوى في الحج، الابتعاد عن محظورات الإحرام. قال تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ﴾ [البقرة: ١٩٧].

المقصد الخامس: إقامةُ ذِكْر الله عزَّ وجلَّ:

قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٩ فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَاسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ﴾ [البقرة: ١٩٨-٢٠٠].

فما شُرِعَ الطواف بالبيت العتيق، ولا السعي بين الصفا والمروة، ولا رمي الجمار، وإراقة الدماء إلا لإقامة ذكر الله تعالى.

وأعظمُ أذكار الحج (التلبية): فهي عنوان الحج، وشِعارُ الحاج كما قال ﷺ: (أفضل الحج: العجُّ والثجُّ) صححه الألباني. و(العج) هو التكبير والتلبية، و(الثج) هو الذبح.

وبهذا يُعلَم شأن الذكر في الحج، وعِظَم منزلته، ورفيع مكانته، وهو هدي نبينا ﷺ، فلم يُفارِقه ذكر الله منذ أن خرج من المدينة إلى أن عاد إليها، ولم يَزل لسانه رطبًا بذكر الله، مُكثرًا من الثناء عليه بما هو أهله من تلبية، وتكبير، وتهليل، وتسبيح، وتحميد، راكبًا وماشيًا في جميع أحواله كما يظهر ذلك جليًا لمن قرأ صفة حجه ﷺ، وتتبَّع أحواله فيه.

المقصد السادس: تهذيب النَّفس البشريَّة:

وفي الحجِّ مجال واسع لإصلاح النفوس، وتهذيب القلوب، وزيادة الإيمان، وكم في الحجِّ من الدروس العظيمة، والعبر المؤثّرة في إقبال القلوب على الله تعالى، وشدَّة رغبها ورهبها ورجائها وخوفها، وكثرةِ رجوعها وإنابتها، فكم من دمعة صادقة في الحجِّ أُريقت، وكم من توبة نَصوحٍ قُبلت، وكم من عَثْرة أُقيلت، وكم من خطيئةٍ حُطَّتْ، وكم من دعاء خاشع أُجيب، وكم من رقبة من النار أُعتقت.

والمتأمّل في نصوصِ الكتاب والسنَّة المتعلّقة بالحجِّ يجدُ فيها من الضوابط العظيمة والتوجيهات الحكيمة التي تُحقِّق للعبد صلاحًا وزكاءً في حجِّه، بل في حياته كلِّها، كقوله تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ﴾ فكم في هذه النواهي من دعوة وتوجيه إلى كَبحِ جِماح النفس والحدِّ من ميلها إلى رغباتها وشهواتها.

وكم في قوله سبحانه: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾ من دعوة إلى المسارعة في فعل الخيرات والمسابقة لأداء الطاعات.

وكم في قوله: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ﴾ من دعوة لأخذ الأُهْبَة والاستعداد بالتَّزوُّد ليوم المعاد، كشأن المسافر الذي يأخذ زاده معه في سفره.

قال ابن القيم -رحمه الله-: "الناسُ مُذ خُلقوا لم يزالوا مسافرين، وليس لهم حَطٌّ عن رِحالهم إلاَّ في الجنَّة أو النار، والعاقل يعلم أنَّ السفرَ مبنيٌّ على المشقَّة وركوب الأخطار، ومن المحال عادةً أن يطلب فيه نعيماً ولذَّةً وراحةً، إنَّما ذلك بعد انتهاء السفر".

المقصد السابع: في الحج تذكير بالآخرة ووقوف العباد بين يدي الله تعالى يوم القيامة:

وللحج ارتباط كبير بيوم القيامة من حيث ضخامةِ الأعمال، وشدة الزحام، وكثرةِ الجمع؛

حتى إن السورة المسماة بسورة الحج تضمنت خبرَ بناءِ البيت، وأذانَ الخليلِ بالحج، وذكرَ الضحايا والهدايا، وأعمالَ القلوب في المناسك، هذه السورة العظيمة قد افتتحت بمشاهد القيامة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ [الحج: ١-٢].

فالمشاعرُ تجمع الناس من مختلف الأجناس في زي واحد؛ مكشوفي الرؤوس، يلبون دعوة الخالق عز وجل، وهذا المشهد يشبه وقوفهم بين يديه سبحانه يوم القيامة في صعيدٍ واحدٍ حُفاة عراة غرلًا خائفينَ وجلين مشفقين؛ وذلك مما يبعث في نفس الحاج خوف الله ومراقبتَه والإخلاص له في العمل.

المقصد الثامن: تربية الأمة على معاني الأخوة الإسلامية:

ففي الحج تختفي الفوارق بين الناس من الغنى والفقر، والجنس واللون، وغيرِ ذلك، وتتوحد وجهتهم نحو خالقٍ واحد، وبلباسٍ واحد، يؤدون نفس الأعمال في زمنٍ واحدٍ ومكان واحد، بالإضافةِ إلى ما يكون بين الحجيجِ من مظاهرِ التعاون على البر والتقوى، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

قال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله- ضِمنَ ذكره لبعض فوائد الحج: "ما يكون فيه من اجتماع المسلمين من جميع الأقطار وتبادل المودة والمحبة والتعارفِ بينهم، وما يتصلُ بذلك من المواعظ والتوجيه والإرشاد إلى الخير والحث على ذلك".

المقصد التاسع: أن في أداء فريضة الحج شكرٌ لنعمة المال وسلامة البدن:

ففي الحج شكرُ هاتين النعمتين العظيمتين؛ حيث يُجهِد الإنسان نفسه، وينفق ماله في التقرب إلى الله تبارك وتعالى.

وعلى الحاجِّ أن يستشعِرَ أيضًا نعمةَ الله عليه في وصوله لهذه الأماكن بسهولة، وكيف كان حال مَن سبقوه الذين كانوا يسيرون عامًا كاملًا مَشْيًا على الأقدام من بلادهم للوصول إلى مكة؛ قال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله-: "قد حدَّثَنا المشاةُ الذين كانوا يمرُّون بنا، يأتون من أقصى شرق آسيا ستة أشهر، ينزلون من قرية إلى قرية، ومن مدينة إلى مدينة، حتى يصلوا إلى مكة".

وقال -رحمه الله-: "شاهدنا هذا مِن قبل، كانوا يأتون على أرْجُلِهم من الهند وباكستان وما وراء ذلك ستة أشهر من بلادهم إلى مكة، ثم يرجعون ستة أشهر".

وحريٌّ بمَن أكرمه الله بالحج أن يكون في حجِّه مخبتًا لربِّه متواضعًا لجَنابه، منكسرًا بين يديه، يرجو رحمته ومغفرته، ويخاف عذابه ومَقتَه. تائبًا من كلِّ ذنب اكتسبَتْه يداه، ومن كلِّ خطيئة مشت إليها قدماه، مُكثرًا من الذِّكر والدعاء والاستغفار والتضرُّع؛ لينقلب من حجِّه خير مُنقلب، وليعود إلى أهله وبلده على خير حال، فيبدأ صفحةً جديدة في حياته، عامرةً بالطاعة والصلاح والاستقامة، بقلب مطمئنٍّ ونفس مُنيبة وفؤاد مُخبِت، سائلًا ربَّه الثبات على الإيمان والسلامةَ من الفتن.